

كتاب تونس يبحث في كيفية إعادة مكانة العقل التاريخي

تونس - تدخل تونس إلى المنافسة على جائزة الشيخ زايد للكتاب في فرع "التنمية وبناء الدولة" بكتاب يحمل عنوان "من أجل إعادة تشغيل العقل التاريخي العربي" للباحث مختار الفجاري، والصادر عن منشورات التاريخية الإسلامية عام 2020، والكتاب من جزأين يمثلان حلقة من مشروع فكري متكامل يقوم على البحث وإعمال العقل والبرهان في فهم النص الديني والقطع مع التعصب والأصولية. ودخل الكتاب بجزائه إلى الرهان النهائي لكبرى جائزة عربية مع سبعة كتب أخرى لإماراتي ومغربي وثلاثة مصريين وأردنيين، الجزء الأول يحمل عنوان "العقل التاريخي العربي: بحث في أسباب صعود العرب إلى الريادة العالمية"، بينما يحمل الجزء الثاني من العناوين، "نقد العقل التأويلي الإسلامي: بحث في الرتبة المعرفية للعرب"، وهي محاولة بحث في تاريخية الإسلام والفكر الإسلامي بإبعاده الحضارية من خلال حدثي الوحي والهجرة.

الباحث يقطع مع العقل التأويلي، العقل الفقهي وأصوله، داعياً إلى العقل التاريخي، عقل البرهان العلمي والاجتماعي

مختار الفجاري أستاذ بجامعة قرطاج بالمعهد العالي للغات بتونس مختص في الدراسات الإسلامية، وله إضافة إلى الكتاب المتقدم لجائزة زايد للكتاب، رسالة دكتوراه بعنوان "حفرات في التأويل الإسلامي" منشورة بالأردن، وكتاب "الفكر العربي الإسلامي: من تأويل المعنى إلى تأويلية الفهم" والجائزة حصلت للباحث التونسي قبل الإعلان عن نتائجها، حيث أن قيمة الجائزة تبدأ من إثارة انتباه القارئ العربي لمشروع يؤسس لاكتشاف النص الغائب في خفايا النص الحاضر. يبدو المشروع مربكاً للساند، لكن الكاتب يرى أن النص الحاضر (القرآن) يمثل صوت السائد الموجود والمستمر من الماضي، أما النص الغائب، فيحتاج إلى صوت العقل الذي يتوق إلى مفقود ومنشود في المستقبل، وهذا المنطقي على اعتبار أن ممارسة العقل عبر تاريخ الثقافة البشرية تقوم على منطق التضاد الخائفي، الشيء ونقيضه، وهذه القاعدة الثنائية تنطبق على العقل الإسلامي أو العربي.

قراءة النص القرآني قراءتان، واحدة تقليدية ترى أن القرآن نص تأسيسي لكل ما تراكم من تعابير ثقافية إسلامية لاحقة له، وهي قراءة قائمة على فلسفة الحضور، والقراءة الثانية تستنطق المسكوت عنه واللامفكر فيه للكشف عما لم يقله النص صراحة وإنما استحضره ضمنياً، وهي قراءة قائمة على فلسفة الغياب، كما يرى الباحث. ومن حدثي الوحي والهجرة، يحاول الكاتب البحث في الخطاب الديني عن مظاهر لا يدبيرة، خاصة وأن النص القرآني خاتم للإسلام وللابد، وهو بذلك يصبح مؤسساً للعقل والعقلانية،



مختار الفجاري: بنية العقل الإسلامي بنية ثنائية متوترة

فمع آخر رسالة نبوية، طفت على السطح علامات نهاية الدين، بمعنى توقف الإله عن بعث الرسل النبوية، ليحل محله الإنسان الأول بعقله وتفكيره. ويرى الباحث أن الإسلام كان ديناً يحصل في طبائعه كثيراً من آثار المعاني اللادينية، وهذا يتطلب رؤية تفكيكية وجهداً نقدياً لتوضيحه وتوليد من القرآن، لنجد النص الغائب الذي يتسرب في بنية النص الحاضر. كيف ذلك؟ ينطلق الباحث من حدثي نزول الوحي والهجرة، على أنه حدثان مفصليان متقابلان من مرحلتين مختلفتين، حيث تشكل السور القرآنية المكية عماد الدين وبناء العقيدة الروحية، أما السور المدنية، فقد تغير فيها الخطاب إلى كل ما يتعلق بالسلوك وتنظيم العلاقات بين الناس وحتى التوجهات الاستراتيجية، وما اختار اسم المدينة ليترتب، إلا دقة ورمزية لتأسيس مشروع ما بعد الوحي، مشروع سياسي لبناء الدولة. ويسمي الباحث هذه الهجرة بالهجرة المعرفية، لأن ختم النبوة، بداية حقيقية لعمل العقل الإنساني، محاولاً في مشروعه ضبط الحدود بين العقل التاريخي والعقل التأويلي. ويقطع الباحث مع العقل التأويلي، العقل الفقهي وأصوله، داعياً إلى العقل التاريخي، عقل البرهان الفلسفي والاجتهاد، فالوحي والهجرة معيار لضبط الحدود بين العقل التاريخي والعقل التأويلي، فكل من يرى أن حدث نزول الوحي أفضل، فهو في صف العقل التأويلي، وكل من يرى حدث الهجرة أفضل فهو في صف العقل التاريخي.

ويرى الفجاري أن هناك أبعاداً رمزية بقيت خارج دائرة التفكير، حيث هناك اتجاه خفي لما هو غير ديني في الدين نفسه، وهناك نص غائب يتسرب في بنية النص الحاضر، وهذا إعلان فكري عن نهاية نموذج الدين وبداية نموذج العقل. وانطلاقاً من منطق التضاد الثنائي، الذي يعتمدهما العقل البشري في ممارساته، يشير الباحث إلى أن التضاد في النص القرآني بين الحاضر والغائب، بين الأسطوري والعقلاني أدى إلى ظهور اتجاهين متقابلين متصارعين، اتجاه أساء الفهم، وأردت معرفياً متوقفاً عند النبوة المنتهية وأحياناً إلى ما قبلها، واتجاه امتد نحو العقلاني، فنقد النبوة والنقد هنا بمعنى التفكير، وأسس العقل التاريخي العربي الذي أدى إلى خلق مناخ حضاري قاد العرب إلى الريادة العالمية.

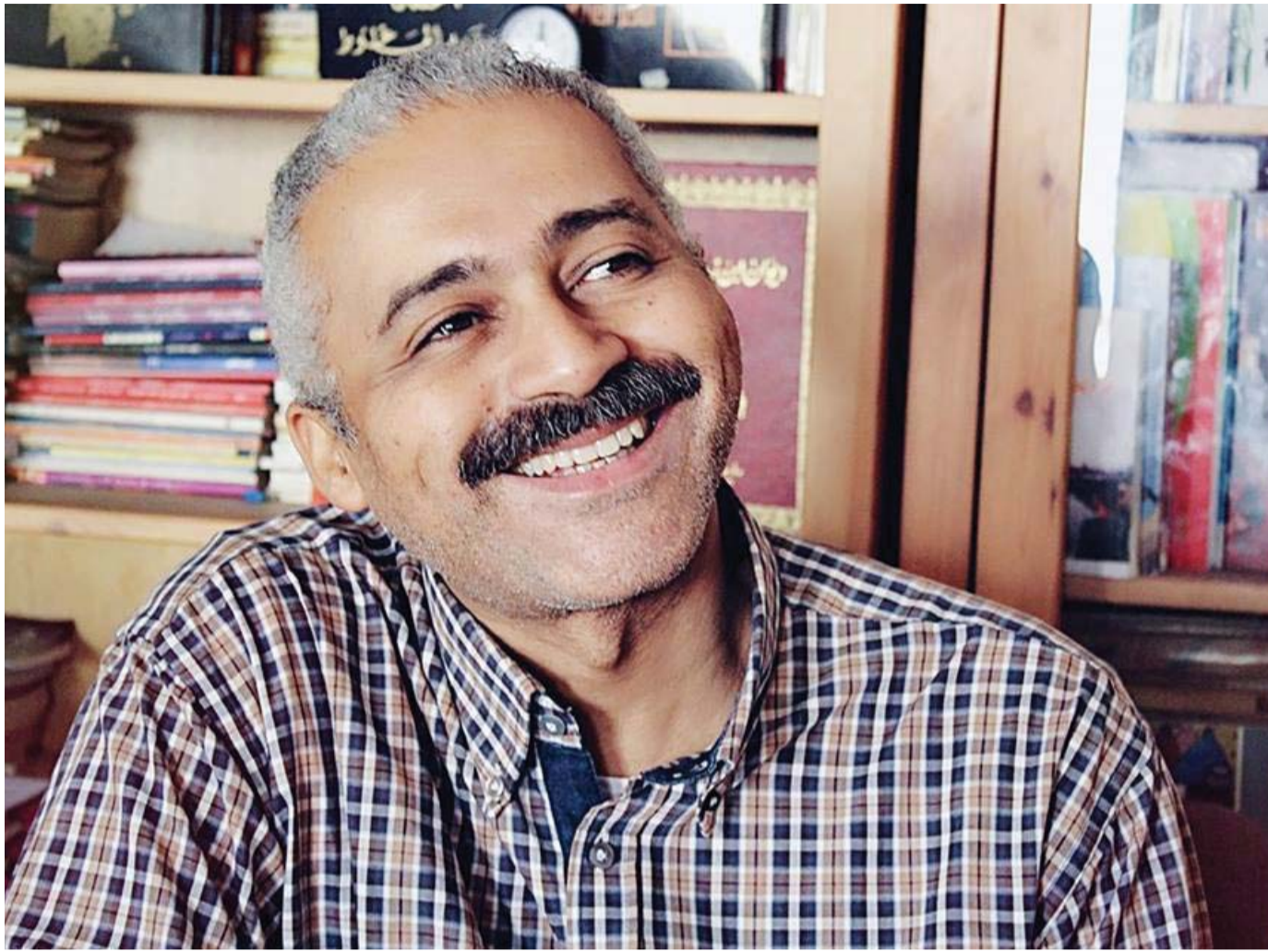
ويؤكد الفجاري أن هذا الاتجاه لم يدم كثيراً، وسرعان ما انتشر التفكير وهيمنت دولة الارتداد والفقرة وحراس العقل التأويلي واستمر ذلك إلى اليوم، بل تعقد أكثر وتراكم الجهل. وظلت بنية العقل الإسلامي، بنية ثنائية متوترة عكس ما يروج لها من أنها منسجمة ومتعايشة. هناك صراع بين آلية ذهنية تنزع إلى التحرر من كل سلطة خارجية عن ذاتها وآلية ذهنية تحتقر ذاتها من أجل كل سلطة خارجية عنها، فالأولى هي العقل التاريخي الذي يطلب الحق من أجل الحق، والثانية هي العقل التأويلي الذي يطوع الحق من أجل النص وما يتبعه من مقدسات متنوعة الأشكال.

كتب الناقد المصري شاكراً عبد الحميد، وزير الثقافة الأسبق عن تماس قصائد خيرالله مع الفن التشكيلي في دراسة بعنوان "جماليات التوافق والشرفات" عن ديوان الشاعر الأحدث المعنون "الأيام حين تعبر خائفة"، ذكر فيها أنه يكتب الشعر كما لو كان يرسم لوحة تشكيلية.

تكامل الفنون

يقول محمود خيرالله في حوار مع "العرب"، إن الشعر على وجه الخصوص يتطلب من الشاعر تذوق الفنون جميعاً واستطعامها وهضمها، وسعى منذ بدايات مشواره الإبداعي إلى أن يغتنى كشاعر بالمسرح والسينما والعمارة والقصة القصيرة والرواية، وبالفن التشكيلي أيضاً.

يرى الأديب المصري، أن الفنان التشكيلي يبدأ لوحته بالتفاصيل الصغيرة التي سرعان ما تتحول إلى عناصر متكاملة، وهو عين ما يقوم به الشاعر، ويضيف "لو أتيت لي أن أتعلم العزف على آلة موسيقية سوف أفعل، لأن الفنون جميعاً ترفد بعضها بعضاً بروح جمالية، تجعلها تنتشر القيم الجمالية في كل عصر، والشاعر في أمس الحاجة إلى ذلك". نلمح تفاصيل اللوحة الجميلة في الكثير من قصائده، مثل قصيدة



الشعر يتطلب من الشاعر تذوق الفنون جميعاً

الإبداع ليس حلبة تتصارع فيها الفنون

محمود خيرالله: قصيدة النثر أكبر انتصار على الأفكار القديمة

وليم فوكنر، بمنتهى البساطة ذات مرة "نحن شعراء فاشلون"، وحين اقترحوا على الأديب المصري الراحل نجيب محفوظ أن يكون هناك مؤتمر يمنح جائزة للرواية كل عام، رد باقتراح أكثر جاهة، هو أن يكون المؤتمر سنوياً نعم لكن بشرط أن يكون في عام مخصصاً للشعر وفي عام مخصصاً للرواية.

التعريفات الدقيقة والنبيلة لقصيدة النثر لن تقول لك شيئاً عن الحرب التي تخوضها هذه القصيدة في الثقافة العربية

يقول خيرالله، "أعتقد أن هذه النظرة التي تزعم أن الرواية انتصرت على الشعر هي ابنة التصور الساذج الذي شاع عن مقولة زمن الرواية، تلك المقولة التي لم تكن مفهوماً نابعاً من قراءة الناقد المصري جابر عصفور، لواقعه الأدبي، بل هي على العكس نتيجة طبيعية لممارساته على الأرض، وهو الرجل الأكثر نفوذاً في وزارة الثقافة المصرية منذ عقد التسعينات من القرن العشرين، وربما إلى اليوم".

إذا كان البعض يرى أن العمل الصحافي للأديب يؤثر على إبداعه فإنه يتفق نسبياً مع ذلك التصور، مشيراً إلى أن هناك طريقتين فقط للنجاح من هذا التداخل، أولهما ألا تعمل في الأصل في تخصصك، أي الصحافة الثقافية، وتلجأ للعمل في قسم آخر للصحافة، مثل الاقتصاد، وهو تفكير رومانسي جداً، والثاني أن تقبل التحدي وتعمل في الصحافة الثقافية بحرص شديد وتتجنب خلط الخاص بالعام وتعمل بموضوعية.

ويذكر محمود خيرالله أنه بعد هذا العمر، وقد قارب على الخمسين، يتذكر مقولة الشاعر الراحل صلاح عبدالصبور "إن ما تنشره الصحف والدوريات ينساه التاريخ"، وبعد ربع قرن من العمل في الصحافة قرر الاكتفاء بعمله الأساسي ككاتب لرئيس تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون، بجانب عمله كمدير تحرير مجلة الثقافة الجديدة، الصادرة عن هيئة قصور الثقافة بمصر.

ويعمل خيرالله حالياً على مشروع مختارات من قصيدة النثر العربية بعنوان "طائر فرخ بين الأغصان"، كما يعمل على كتاب بحثي بعنوان "مزاج الباشا.. تاريخ ثقافة الخمر في مصر"، فضلاً عن ديوان شعر جديد لم يقم بعد باختيار عنوانه.

لا تصدقوا السحاب الذي في السماء/ إنه فراء زوجة الرئيس/ بعدما علقته على شماعة الرب/ وإذا صادفتم أسداً هارباً/ من حديقة قصر/ كذبوا عيونكم/ لأنه مجرد صديق مخلص/ لسعادة الرئيس/ تأكدوا دائماً من كل شيء/ انظروا مثلاً إلى سجاجيد القصر/ وهي تنبض تحت أقدام الوفود الأجنبية/ إنها شعيرات الصبايا/ اللاتي قتلهن الوباء.

يرى الشاعر المصري أن قصيدة النثر تمثل تحقياً نموذجياً للتطور المتشرد في الإبداع الشعري، والتعريفات الدقيقة والنبيلة لقصيدة النثر في الغرف مثل ما رأه ماكس جاكوب، وسوزان برنار، لن تقول لك شيئاً عن الحرب التي تخوضها هذه القصيدة في الثقافة العربية، كما لن تقول لك شيئاً عن الانتشار الذي تحققه كل يوم كقوة هدامة للمثل والأفكار القديمة، وهي المنوط بها أن تقود الفنون كلها، من أجل أن تلعب دورها الحضاري، وتطوير وعي الناس وتغيير نظرتهم إلى واقعهم، وهذا هو السبب في أن قصيدة النثر تعتبر في بلدنا اليوم عملاً من أعمال الشيطان.

الحرب على الشعر

يشير خيرالله إلى إن هناك معاملة سيئة جداً يتلقاها الشعر عموماً ومن كل المؤسسات الرسمية، وما يراه البعض تناقضاً في جمهور قصيدة النثر يراه هو تزايد غير مسبوقة في الانتشار والتذوق والتأثير، ومن يعرف شيئاً عن تاريخ هذا النوع الأدبي يدرك أن الرغبة في محاصرته خلال العقود الأربعة الماضية من قبل منتفعين يعملون في مؤسسات رسمية عاتية، وليس أدل على ذلك من اتهام بعض شعراء التفعية لشعراء قصيدة النثر بأنهم "حرافيش".

حول مقولة البعض بأن الرواية انتصرت على الشعر يقول الشاعر المصري في حوار مع "العرب" "إنني لا أستطيع أن أرى الفن كما لو كان حلبة للمصارعة، فالفنون تبدو قيمتها الحقيقية حينما تتجاوز، والأصل في الفنون أن تتكامل وترفد بعضها بعضاً، بحيث يصير الشعر هدفاً من أهداف كاتب الرواية". وعلى العكس قال الروائي الأميركي

في قراءة لبعض ما ينشر في الصحافة الثقافية العربية نجد نوعاً من الصراعات المفتعلة التي لا تتجاوز الجدل العقيم، ومن بين هذه الصراعات صراع الرواية مع الشعر. فكل مختص يقدم هذا الجنس الأدبي على الآخر، بينما هما متكاملان. "العرب" كان لها هذا اللقاء مع الشاعر المصري محمود خيرالله حول أهم قضايا الشعر والأدب في عالمنا العربي.

"يرفر فر عالياً" التي يقول فيها: ما من قلب يرفرف عالياً/ متكناً - هكذا - على ظهر طائرة ورقية/ تميل وترتفع/ تحت سماء الله رائقة/ بين السحب/ إلا وكان طرف خيطه ينتهي -/ متعرجاً -/ في قبضة صبي جائع. وفي قصيدة أخرى، يقول: بعض الشرفات تودع حياتها التليدة في البناية/ وتهوي على الأرض/ مرة واحدة/ كأنها قررت/ فجأة/ أن تنتحر. وينتمي محمود خيرالله، إلى جيل التسعينات وهو يعمل بالصحافة، وصدرت له عدة دواوين، أبرزها: "لعنة سقطت من السماء"، و"فانتازيا الرجولة"، و"ظل شجرة في المقابر"، و"ما صنع الحداد" الذي شارك به في مهرجان شعراء البحر المتوسط في مدينة سييت الفرنسية عام 2015، وتمت ترجمته إلى اللغة الفرنسية، وترجم على يد المترجم الجزائري عبدالقادر كعبان إلى اللغة الإسبانية، وللشاعر كتاب بحثي بعنوان "بارات مصر".

وإذا كان الديوان الأحدث للشاعر، وهو "الأيام حين تعبر خائفة"، والصادر عن الهيئة العامة للكتاب بمصر، محملاً بصور غريبة ومشاهد غير معتادة، فهو يرى أن مهمة الشاعر أن يكتب ما يدور في داخله، من أوهام وأحلام وشظايا كلام.

ويوضح خيرالله لـ "العرب"، أن الشاعر غير مطالب بأن يقدم تفسيراً لما يكتبه، فإن لم يكن ما يكتبه قادراً على إثارة الأفكار والمشاعر، وربما الجدل داخل عقل القارئ، وفي وجدانه، فلن يهتم به أحد. ويؤكد أن ديوانه الأخير الذي صدر في يناير 2019 نال من الاحتفاء قدره العشرات من المرات، بين دراسات بحثية مطولة، ومقالات متوسطة الطول وبعض القراءات الصحافية السريعة.

يخلق الشاعر كما يشاء في فضاء الخيال ويديعي تفسير ما يقول للقارئ، كل حسب إحساسه بالكلمات، وحسبنا أن نقرأ له في قصيدة "كل ما صنع الحداد" قوله: يا من تعيشون هنا/



مصطفى عبيد
كاتب مصري

الشعر جمال وسحر وإبداع أخاذ، يسحب مشاعر الناس ويخلق بها في فضاءات لا يساير لها سبباً لخلود حقيقي، وسحباً لعشاق ومتابعين مازالوا يرون الشعر قادراً على الإمتاع وجديراً بالمأونة. وتتلون الحروف في أحيان كثيرة لتتجاوز رص الكلمات واستخلاص الموسيقى لفتح نوافذ الخيال فتتحول القصيدة إلى لوحة، والشاعر إلى رسام يضيف التفاصيل للوصول إلى مشهد مبهج.

ويمثل الشاعر المصري محمود خيرالله نموذجاً لمزج الشعر والفن التشكيلي معاً، نشاهد قصائده قبل قراءتها، وتذوق جمال تفاصيلها قبل وسحراً قبل اللغة وكانها في رسم بدعي.

كتب الناقد المصري شاكراً عبد الحميد، وزير الثقافة الأسبق عن تماس قصائد خيرالله مع الفن التشكيلي في دراسة بعنوان "جماليات التوافق والشرفات" عن ديوان الشاعر الأحدث المعنون "الأيام حين تعبر خائفة"، ذكر فيها أنه يكتب الشعر كما لو كان يرسم لوحة تشكيلية.

يقول محمود خيرالله في حوار مع "العرب"، إن الشعر على وجه الخصوص يتطلب من الشاعر تذوق الفنون جميعاً واستطعامها وهضمها، وسعى منذ بدايات مشواره الإبداعي إلى أن يغتنى كشاعر بالمسرح والسينما والعمارة والقصة القصيرة والرواية، وبالفن التشكيلي أيضاً.

يرى الأديب المصري، أن الفنان التشكيلي يبدأ لوحته بالتفاصيل الصغيرة التي سرعان ما تتحول إلى عناصر متكاملة، وهو عين ما يقوم به الشاعر، ويضيف "لو أتيت لي أن أتعلم العزف على آلة موسيقية سوف أفعل، لأن الفنون جميعاً ترفد بعضها بعضاً بروح جمالية، تجعلها تنتشر القيم الجمالية في كل عصر، والشاعر في أمس الحاجة إلى ذلك". نلمح تفاصيل اللوحة الجميلة في الكثير من قصائده، مثل قصيدة

